الفرزدق وهشام بن عبد الملك

بقلم - محمد يوسف الجاهوش

انطلق موكب هشام بن عبد الملك العام ١١٠ هـ، في خلافة أبيه إلى أرض الحجاز، لأداء مناسك الحج، وحفت به الركائب من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه وشماله بصحبة الجند الأشداء والحرس الأمناء إلى جانب أفواج الخدم من الغلمان والإماء، كل يتبارى في تقديم أفضل الخدمات، وتذليل المتاعب والصعوبات، كي لا يسأم هشام من طول الطريق، ولا تناله وعثاء السفر.

طوى الركب فسيحات البيد، واجتاز المهامه والقفار، وحط الرحال في أم القرى، بمنازل الخلفاء، جوار البيت العتيق.

وعلى مرأى البصر من منزله كانت أفواج الحجيج تتزاحم حول الكعبة تزاحماً شديداً، حتى ضاق بهم المطاف على سعته، الجميع يتاجون ربهم: مليين، خاشعين، ضارعين، مؤملين، لا يميز الناظر أميرهم من خفيرهم، ولا غنيهم من فقيرهم، ولا سوقتهم من أهل الجاه والتمكن، كلهم جاؤا شعثاً غبراً، رجالاً. وعلى كل ضامر، يسابقون سافيات الرياح: ودورة النيرين، الشمس والقمر- ليحظوا بهذا الموقف الكريم، ويمرغوا الأنوف والجباه في ذلك الثرى الطاهر.

وازداد تجمعهم حول الحجر الأسود، حيث تسكب الدمعات، وتذرف العبرات، وتلهج الألسن بالتضرع لبارئ الأرض والسماء أن يغفر الزلات، ويقيل العثرات، ويمحو الخطايا، ويجود بالرضا والقبول، فيعلى المنازل، ويرفع الدرجات.

امتزجت أصوات الداعين بأنات المبتهلين، وآهات المستغيثين بضراعات المتوسلين، ورجاء الطامعين بخشية الخائفين، حتى إنك لتحسب أن العيون الدامعة عيناً واحدة، والألسن المستغيثة لساناً واحداً، رغم تعدد اللغات واختلاف اللهجات، فسبحان من وسع سمعه الأصوات، وأحاط علمه باللحظات والخطرات.

اتصلت القلوب بخالقها، وسمت الأرواح فسبحت في الملأ الأعلى، حتى لكأنها تشهد عرش الرحمن بارزاً، ومنادياً من قبل الحق ينادي: هلم أضياف الرحمن إلى القرى، لقد جئتم من كل فج عميق، تاركين الصحب والأهلين، والموطن والبنين، فقد طاب منكم المسعى، وفزتهم بالسعادة وحسن العقبى، فبشراكم اليوم جنة المأوى ﴿أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾ «الرعد- ٣٥».

موكب هشام

وبينما النفوس في نشوتها، والأبصار شاخصة إلى خالقها، والقلوب متعلقة بحبال الرجاء، حتى إن أصحابها ليشعرون أن يد العناية قد امتدت لتنشلهم من حمأة الطين إلى ملكوت الرب في أعلى عليين، شكراً لمسعاهم، ومكافأة لإخلاصهم وطاعتهم ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا﴾ «النساء -٦٩».

نعم، بينما الناس في هذه الحال وصل هشام بموكبه إلى المطاف، يتقدمه الجند والحرس، ويحيط به الأعوان والأتباع، وكان أهل موكبه يظنون أن الناس سيخلون المسار لسليل الخلفاء الأمويين، ويؤثرونه بتقبيل الحجر الأسود.

ولشد مما كانت دهشتهم عندما لم يجدوا عيناً تلحظهم، ولا وجهاً يميل نحوهم! نعم اشتدت دهشتهم، وازدادوا تعجباً، ولم يتورع بعضهم أن يصيح بالجموع: افسحوا الطريق، حتى تصل إلى الحجر! لكن صراخهم ضاع بين أصوات التلبية والتكبير، والتحميد والتهليل، فلم تسمعه أذن، ولا وعاه فؤاد، وعجز هشام عن استلام الحجر من شدة الزحام.

وتدارك الجند الموقف فتصبوا له منبراً، فجلس عليه يرقب الجموع، ويداري انزعاجه وحنقه، وطاف حوله أهل الشام، يؤملون أن تحين فرصة يتمكن معها من تقبيل الحجر.

طال انتظارهم، ولم يقدهم تفكيرهم إلى مخرج، وزاد من حيرتهم قدوم شاب عليه إزار ورداء، منور الوجه، بلحية مدورة، لونها إلى السواد أقرب، أحاطت بوجهه إحاطة الهالة بالبدر، بين عينيه سجادة مثل ركبة البعير، ظهر بين الجميع، فكان من أحسنهم وجهاً وأطيبهم رائحة، إنه علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الملقب «زين العابدين»، فجعل يطوف بالبيت، فإذا بلغ موضع الحجر تنحى الناس له، هيبة وإجلالاً، فيستلمه، لا يزعج عنه، حتى يكون هو الذي يتركه.

هال هشاماً ما رأى، وكادت نفسه تميز من الغيظ، ودهش أهل الشام من صنيع الناس هذا، وتهامسوا فيما بينهم: من يكون هذا الذي أخذ بألباب الحجاج، حتى آثروه على أنفسهم بتقبيل الحجر؟ وتشجع أحدهم فسأل هشاماً من يكون هذا الذي هابه الناس وأحبوه، وصرفوا وجوههم تلقاءه، في الوقت الذي لم تطرف منهم عين نحو هشام وموكبه؟.

أثار السؤال طائراً في نفس هشام، فما عساه يجيب؟ وخشي أن يرغب أهل الشام بزين العابدين، فقال: لا أعرفه، وظن أن إنكاره معرفته ينهي الكلام، ويقطع المقال.

الفرزدق يسمعها: وكان الشاعر الفرزدق بين الجموع التي أخلت المكان لزين العابدين، فسمع مقالة هشام، وكيف أنكر المفرد العلم،

سليل دوحة رسول الله ﷺ، فأخذته الحمية والغيرة، لآل المصطفى، فقال: لكني أعرفه، قال الشامي: ومن هو يا أبا فراس؟ قال الفرزدق:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقي النقي الطاهر العلم
ينجاب نور الهدى عن نور غرته
كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله
بجده أنبياء الله قد ختموا
الله فضله قدماً وشرفه
جرى بذاك له في لوحه القلم
وليس قولك من هذا بضائره
العرب تعرف من أنكرت والعجم

وهنا تفجر غضب هشام وأمر بحبس الفرزدق، فحبس بعسفان بين مكة والمدنية وبلغ ذلك زين العابدين، فبعث إليه باثنى عشر ألف درهم، وقال: اعذرنا أبا فراس، لو كان عندنا أكثر منها لوصلناك بها، فردها الفرزدق، وقال: يا ابن رسول الله، ما قلت الذي قلت إلا غضباً لله ولرسوله، لكن زين العابدين أعادها إليه، وأقسم عليه إلا قبلتها، فقد رأى الله مكانك، وعلم نيتك، فقبلها الفرزدق وشكر صنيعه.

درس وعبرة:

قدر أزلي، وناموس رباني أن يتولى الله عز وجل نصرة أوليائه، ودفع الأذى والضر عنهم. ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾، وأن يسخر من جنوده - التي لا يعلمها إلا هو- ليكون الأداة التي يمضي من خلالها أقداره، ويرمي بأيديها سهامه.

والشاعر الفرزدق ممن أراد الله به خيراً، وأكرمه بموقفه الدفاعي عن علم من أعلام آل البيت، يرجى له بسببه غسل كثير مما اقترف لسانه في منظوم شعره، وبليغ نثره ﴿إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفع الله بها درجات﴾ فكم يفوت المرء من مكاسب وغنائم بصمته في مواطن تقتضي الرجولة أن يصدع فيها بالحق ويجهر بالدفاع عنه؟.

مراجع البحث:

البداية والنهاية (ابن كثير).
مختصر تاريخ دمشق (ابن عساكر)
شذرات الذهب (ابن العماد)

ضوابط النشر

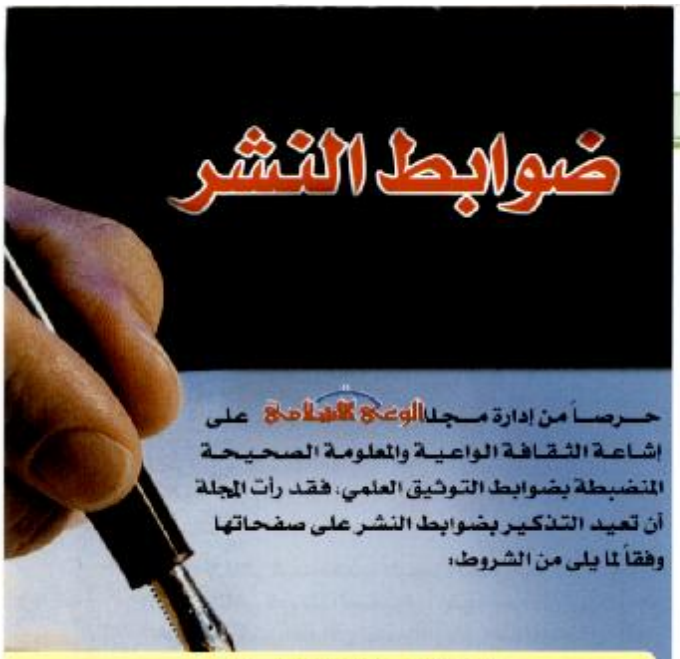

حرصاً من إدارة مجلة الوعي الإسلامي على إشاعة الثقافة الواعية والمعلومة الصحيحة المنضبطة بضوابط التوثيق العلمي، فقد رأت المجلة أن تعيد التذكير بضوابط النشر على صفحاتها وفقاً لما يلي من الشروط:

• ما يتعلق بالكاتب •

- أن يكون الكاتب متخصصاً في مجال كتابته وأن تكون ثقافته تؤهله للكتابة في الموضوع الذي يطرقه.
- أن يرسل صورة شخصية لشخصه الكريم بالإضافة لسيرته الذاتية.
- أن تكون المراسلات باسم رئيس التحرير.
- أن يكون العنوان كاملاً، مع كتابة رقم الهاتف والفاكس واضحين إن وجدا.

• ما يتعلق بالمادة العلمية للمقال •

- أن يعالج الموضوع فكرة متميزة، أو ملمحاً فريداً يخدم المعنى العام للوعي الإسلامي والثقافة النيّرة والعلم الشرعي.
- أن يكون المقال بلغة واضحة سليمة تناسب أكبر شريحة من القراء.
- أن تكون الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مخرَّجة.
- أن تكون المراجع في هوامش المقال مشاراً إليها بأرقام تشتمل على اسم الكاتب، واسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- ألا يزيد المقال عن ثلاث صفحات فلسكاب، وأن يبتعد الكاتب عن المقالات المتسلسلة ما أمكن.
- أن تكون الحوارات والتحقيقات والاستطلاعات مقرونة بالصور الفوتوغرافية الملونة.
- لا تنشر المقالات والبحوث المأخوذة من كتب منشورة.
- ألا يكون المقال منشوراً في المجلات الأخرى.

الوعي الإسلامي